المبحث الثاني

تاريخ الاستيطان في فلسطين ومراحله الزمنية

د. وليد العريض*

بداية لابد من ذكر بعض الأمور الهامة والملاحظات الأساسية وتوضيحها، وهي:

- أن ظاهرة الاستيطان في فلسطين – خاصة – هي ظاهرة فريدة من نوعها في التاريخ الحديث والمعاصر، كونها لم تستطع القضاء على الشعب الأصلي، كما حدث في أمريكا واستراليا، ولذا بقيت هذه القضية متحركة وستبقى كذلك للأبد.
- أن ظاهرة الاستيطان ليست ظاهرة منفصلة، وإنما مرتبطة بجوهر القضية الفلسطينية، فهي من أكثر الظواهر ارتباطاً بمشكلة اللاجئين وحق العودة في جوانبها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية.
- ظاهرة الاستيطان من أكثر القضايا في التاريخ الحديث والمعاصر التي أخذت أبعاداً إقليمية ودولية.
- رغم الدراسات العلمية وغير العلمية المكثفة حول هذه الظاهرة، إلا أنها تبقى من أكثر جوانب القضية الفلسطينية غموضاً في الماضي والحاضر، وربما في المستقبل، إما بسبب إخفاء المعلومات أو تناقضاتها أو المبالغة فيها، وإما بسبب إخفاء الحقائق أو لتثبيتها كواقع ملموس، ولا سيما من الجانب الصهيوني أو المبالغة فيها من الجانب العربي لتضخيم القضية وإبراز آثارها الخطيرة.
- إن مستقبل الاستيطان مرتبط ارتباطاً مباشراً بالربح والخسارة، ولذا فإن هذه المشكلة لن تحل ما دام المشروع الصهيوني في حالة ربح دائم.

---

* أستاذ التاريخ في جامعة اليرموك.

مراحل الاستيطان

يمكن تقسيم الاستيطان في فلسطين من الناحية الزمنية إلى ثلاث مراحل:

الأولى: المرحلة العثمانية من بداية القرن ١٩-١٩١٧.

الثانية: مرحلة الاحتلال والانتداب البريطاني ١٩١٧-١٩٤٨.

الثالثة: مرحلة الاحتلال الصهيوني وقيام إسرائيل ١٩٤٨- إلى الآن.

لكن ما يعيننا هو الواقع العملي للاستيطان، وقد مر في مراحل عدة هي:

- المرحلة النظرية أو مرحلة الدعوة ١٧٩٨ -١٨٥٦.
- مرحلة القوانين العثمانية والتنظيمات والإصلاحات ١٨٥٦-١٨٨٢.
- مرحلة التسلل والمقاومة ١٨٨٢-١٩١٧.
- مرحلة التهجير الرسمي ١٩١٧-١٩٤٨.
- مرحلة التوطين والاحتلال ١٩٨٤- إلى الآن.

وإذا ألقينا نظرة سريعة على الفئة الثانية من هذا التقسيم، يتضح ما يلي:

المرحلة النظرية أو الدعوة ١٧٩٨-١٨٥٦

تميزت بمجموعة من الدعوات من بعض الساسة أو رجال الدين اليهود أو المفكرين، في إطلاق فكرة الاستيطان كأحد أهم الوسائل في تحقيق انتصاراتهم أو نشر أفكارهم .

- دعوة نابليون

من خلال منشوره الشهير ٢٠/ ٤/ ١٧٩٩ الذي دعا فيه اليهود إلى مساعدته في تحقيق أهداف حملته سياسيا وعسكرياً، وأهمها احتلال مصر والشام، وقطع الطريق على بريطانيا من تحقيق ذلك. لكن هذه الدعوة قد فشلت لسببين:

١. تردد اليهود في قبول هذه الدعوة، لتشكيكهم في قدرته على الانتصار على الدولة العثمانية وعبارتهم الشهيرة "سيف السلطان أقوى من سيفك".
٢. فشل الحملة الفرنسية نفسها في زمن قصير جداً.

فترة محمد علي في بلاد الشام ١٨٣١–١٨٤٠

أحيت هذه الفترة فكرة العودة إلى الأراضي المقدسة والاستيطان، مستفيدين من استغلال سيطرة محمد علي على بلاد الشام وعدائه للدولة العثمانية، والاستفادة من قوانينه الإصلاحية والانفتاحية على أوروبا (خاصة فرنسا)، ومنها دعوات:

- يهودا الكالاري ١٨٣٤ العودة إلى الأرض المقدسة.
- الحاخام كالبشر ١٨٣٦ الهجرة والاستيطان.
- الحاخام يهودا القلعي ١٨٣٩.
- عضو البرلمان البريطاني شافتسبوري ١٨٣٩، ورسالته إلى بالمرستون وزير الخارجية البريطانية حول هذا الموضوع.
- مقابلة مونتفيوري ١٨٣٩ مع محمد علي، لإقامة مستوطنات عن طريق استئجار الأرض، ولما فشلت هذه المحاولات، تزعمت بريطانيا حملة للقضاء على محمد علي وإخراجه من بلاد الشام حتى لا يقع تحت النفوذ الفرنسي. (معركة نزيب) ١٨٣٩ ومؤتمر لندن ١٨٤٠، وفشل الجهود الإنجليزية – اليهودية في تثبيت فكرة الوطن اليهودي المستقبلي.
- فشل اليهود في الحصول على أية امتيازات بعد صدور خط شريف كلخانة ١٨٣٩، بسبب تلكؤ السلطان عبد المجيد في تنفيذ هذه الإصلاحات، لإدراكه خطورة مساواة غير المسلمين بالمسلمين لهذا الغرض.

ومن هنا برزت فكرة إصدار خط جديد ١٨٥٦ بأية وسيلة، ولم تسفر هذه الدعوات والمحاولات عن تحقيق أي استيطان عملي في فلسطين.

مرحلة التنظيمات العثمانية ١٨٥٦-١٨٨٢

بدأت هذه المرحلة بهزيمة الدولة العثمانية أمام روسيا في حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)، فأجبرت الدولة العثمانية على إصدار خط شريف همايون ١٨٥٦ بموجب مؤتمر باريس ١٨٥٦، وتميزت هذه المرحلة بعدة أمور، منها:

- التحرر القانوني لغير المسلمين الذي منحهم مساواة كاملة في الشؤون الدينية، وكان لحق الملكية وقانون الطابو ١٨٥٨، وإنشاء المؤسسات الدينية والثقافية والاجتماعية، فرصة ذهبية لليهود في استخدام هذه القوانين وترجمتها عملياً على أرض الواقع.
- الاستفادة من قوانين الامتيازات الأجنبية التي بدأت تفرض قهراً على الدولة العثمانية، بسبب هزائمها العسكرية (حرب مع روسيا ١٨٧٨).
- التحول الدستوري في الدولة العثمانية، قتل السلطان عبد العزيز وخلع مراد الخامس، كما جيء بعبد الحميد الثاني لهذا الغرض، تحت بند الإصلاحات الدستورية والاقتصادية والقومية والاجتماعية "العلمنة والانفتاح".
- شهدت هذه الفترة نشاطاً محموماً في إنشاء المؤسسات التي ستشكل القاعدة الأساسية لاستيطان المستقبل وفي مقدمتها:
  - القنصليات في القدس
  - صندوق استكشاف فلسطين 1865 Palestine Exploration Fund
  - جمعية استكشاف فلسطين الأمريكية 1870 Palestine Exploration Society جمعية الهيكل الألماني The German Temple Society كريستوف هوفمان ١٨٦٨.
  - الأليانس Alliance Israelite universelle

إن ما تم إنشاؤه من هذه المستوطنات في فلسطين لا يزيد على خمس، كان أهمها، مدرسة يافا الزراعية على ٢٦٠٠ دونم "مكفيه إسرائيل - بتكاح تكفا – ملبس العربية"، ولم يزد مجموع السكان على ١٥٠٠٠ يهودي. (صفد، الحولة، وادي جنين، بتياه قرب جنين، غدير يافا).

مرحلة التسلل والمقاومة ١٨٨٢-١٩١٧

ومما تميزت به هذه المرحلة:

- تميزت هذه المرحلة بالتوسع عن طريق الإمبرطوريات (هرتزل) روسيا، المانيا، بريطانيا النمسا، الدولة العثمانية.

- ظهور الاتحاد والترقي، كحركة مقاومة سياسية وعسكرية للدولة العثمانية. لقلب نظام الحكم بعد إلغاء الإصلاحات الدستورية من قبل السلطان، وفي مقدمتها البرلمان العثماني.
- ظهور الحركة الصهيونية التي تجسدت في حركة قومية في مؤتمر بال ١٨٩٧ والمؤتمرات الصهيونية الأخرى.
- فكرة الرجل المريض في أوروبا لتقسيم تركة الدولة.
- احتلال ولايات عثمانية كثيرة منها قبرص ١٨٧٨، مصر ١٨٨١، تونس ١٨٨٢.
- المقاومة الدينية والعرقية للسلطان عبد الحميد ودولته، الأرمن، صربيا فتوحد العرب واليهود والمسيحيين والمسلمين والكرد والترك وغيرهم في خندق واحد.
- الدعم السياسي والإعلامي الأوروبي، تحت بند تحرر القوميات والطوائف والعداء للسامية.
- بروز حركة المقاومة الرسمية والشعبية التي تزعمها السلطان نفسه لمقاومة الاستيطان في فلسطين.

ومن خلال المصادر الرسمية وغير الرسمية حول هذا الموضوع، تبين أن عدد المستعمرات اليهودية في فلسطين ارتفع إلى ما بين ٤٣-٤٨ مستعمرة، فيما وصل عدد السكان اليهود حوالي ٥٠ ألفاً، وفي بعض التقديرات إلى ٨٠ ألفاً في حين كان عدد سكان فلسطين في الحرب العالمية حوالي ٧٥٠ ألفاً. وهي أرقام متضاربة.

- إضافة إلى ذلك إنشاء مجموعة من المؤسسات، بنك الاستعمار اليهودي، والشركة الإنجليزية الفلسطينية (البنك فيما بعد) الصندوق القومي اليهودي.

مرحلة التهجير (الاستيطان المهاجر ١٩١٧-١٩٤٨)

- تنفيذ وعد بلفور.
- تدويل المشكلة الفلسطينية.
- الإدارة الباطنية للوكالة اليهودية لفلسطين.

- فشل الدبلوماسية الدولية في إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية قبل عام ١٩٤٨.
- حركات المقاومة الفلسطينية غير المنظمة ١٩٢٠-١٩٤٨ وحركات يهودية عنيفة مضادة، مسلحة علمياً ومالياً وسياسياً وعسكرياً.
- فقدان العرب لسيادتهم السياسية(الاحتلال)، أفقدهم القدرة على التأثير المحلي والدولي.

تشير الدراسات إلى أن سنوات الاحتلال الإنجليزي ما بين ١٩١٧-١٩٢٢، رسمت فيها الخطوط التالية:

- وجهة نظر المتدينين وطن من النيل إلى الفرات.
- العلمانيون وطن من دان إلى شمعون(بئر السبع).
- البقاع مدخل بين فلسطين ولبنان وجبل الشيخ ووادي اليرموك .
- منطقة الخط الحديدي بين درعا ومعان.
- منابع نهر الأردن والليطاني.

إذن أرض إسرائيل كما ورد في كتاب أرض إسرائيل للكاتب يسحاق بن زيفي وابن غوريون – هذا الكيان المقترح حدوده:

- شمالاً: جبل لبنان.
- شرقاً: بادية الشام.
- جنوباً: شرق سيناء.
- غرباً: البحر المتوسط.

يحتاج الاستيطان إلى:

- خلاص وافتداء.
- حكومة مستقرة ومستنيرة.
- نشاط اليهود وذكائهم.
- طاقات مالية ضخمة للتنمية والتطوير.

يحتاج الاستيطان اليهودي في فلسطين وتوسعته في ظل الانتداب إلى:

- تحقيق دولة يهودية تشمل فلسطين وربما شرق الأردن (الآن).
- نقل سكان فلسطين إلى العراق في وقت لاحق (الآن)
- قيادة يهودية للشرق الأوسط (مشروع الشرق الأوسط) (الآن).

- أواخر ١٩٢٢ ← استيطان ١٧٣,٠٠٠ دونم ←الإجمالي ٥٩٤ ألف دونم.
- ١٩٣٥ ← استيطان ١,٢٣٢٠٠٠ دونم.
- ١٩٣٥ ← بناء ١٥٤ مستعمرة.
- ١٩٣٦-١٩٣٩، ظهور فكرة الاستيطان المسوّر وذو الأبراج (٥٥ مستعمرة).
- ١٩٣٨-١٩٤٣، إقامة ١٥ مستعمرة جديدة.
- يوم الغفران ١٩٤٦ إقامة ١١ نقطة استيطانية في يوم واحد.
- ١٩٤٧، ٧ مستوطنات أخرى.

السكان اليهود:

- ١٩٢٢ ٨٤ ألف، ١١٪.
- ١٩٣٥، ٤٠٠ ألف، ٢٨٪.

خلق هذا الاطراد في الاستيطان واقعاً جديداً، مما جعل لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة، تقرر ضم مناطق المستعمرات ومنها النقب إلى الدولة اليهودية، وتشير بعض الدراسات إلى أن عدد المستعمرات بلغ بين ١٩٢٠-١٩٤٨ ٢٦٩ مستعمرة؛ أي أن الرقم تضاعف ست مرات في فترة زمنية تساوي نصف الفترة السابقة.

أسباب النجاح يعود إلى:

- نجاح الزراعة.
- نجاح الصناعة.
- موجات الهجرات المتدفقة.

- زرع الشكوك والاستياء لدى الفلاحين الفلسطينين، وذلك لطردهم من أراضيهم.
- تطويق القرى العربية بالمستوطنات، بل تطويق الدول العربية المجاورة:
  - مصر ١٨.
  - لبنان ١٥.
  - سوريا ٧.
  - الأردن ١٢.
- استغلال قوي لقوانين الانتداب فيما يخص ملكية الأرض.

مرحلة ما بعد ١٩٤٨– حتى الآن (مرحلة الإحلال)

- إن الدولة قامت على جزء فقط من فلسطين.
- استمرار خلق مستوطنات زراعية.
- خلق مستوطنات حدودية دفاعية.
- توزيع سكاني متكافئ.
- أوامر عسكرية لطرد السكان العرب.
- التوسع الاستيطاني من خلال الحروب ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٨٢.
- خلق تيارات دينية وقومية تؤمن بـ:

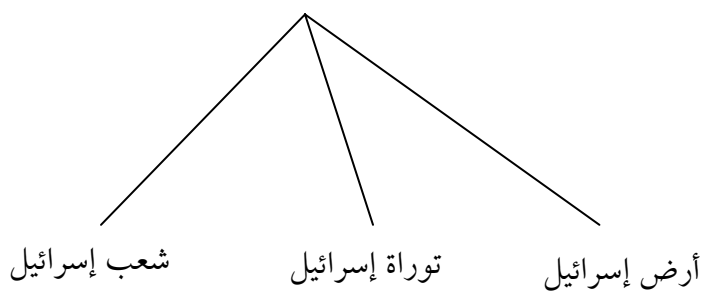

- الضم الزاحف ← داخل ١٩٤٨ وخارجها، ضم القدس، الجولان، والسور الأمني الذي حجز خلفه قرى عربية عديدة وآلاف الدونمات.
- تهويد الضفة الغربية وقطاع غزة على المدى الطويل (المستوطنات).

ما هو مستقبل الاستيطان: في ظل المعطيات السابقة، تسعى إسرائيل إلى:

- هو البديل ← لمفهوم أرض إسرائيل التاريخية.
- حدود وطن متحركة.
- استمرار تيار الإسرائيلية واليهودية.
- الاستيطان هو الركيزة الأساسية للأمن، والأمن المتبادل كله مباح حتى في المناطق منزوعة السلاح.
- المزواجة بين التوسع المحلي والإقليمي.
- فرض سياسة الأمر الواقع، لا مفاوضات على الماضي .
- احتلال إسرائيل لمركز الإقليم.
- دمج العقلية اليهودية مع المال والعمالة العربية (مليارات + عمالة).
- استمرار تيار الهجرة اليهودية فهو المنقذ لليهود من الذوبان.
- طرد السكان العرب من المناطق الاستيطانية (البحر الميت) بالوسائل القانونية وغير القانونية.
- كل ذلك ليس أطماعاً أو مخططات كما يفهم البعض، إنما هي مراحل لطبيعة ثابتة للمشروع الصهيوني. ولذا ستعمل إسرائيل على إيجاد وجبة أخرى من التوسع الاستيطاني على مستوى الإقليم للتخلص من الاختناقات الحقيقية.

لكن السؤال المطروح، وكنت أتمنى أن يكون عنواناً لهذه الندوة. أو عنواناً لندوة لاحقة:-

ما هي مشاريعنا التوسعية والاستيطانية لمقاومة الاستيطان اليهودي في فلسطين والمنطقة العربية ؟